الآراء الموراسية

بقلم الاب فيلكس سوانيون اليسوعي

الآراء الموراسية هي على الاخص علم اجتماع ولكنها تفرض فلسفة عامة او بالاحرى انها تحديد موقف من هذه الفلسفة وعلم ما وراء الطبيعة والاخلاق والدين.

الفلسفة العامة

يختصر علم ما وراء الطبيعة الموراسي السلبي برمته بكلمتين : الفلسفة الوضعية المحضة وانكار وجود الله .

ففي (الصفحة ٦٦) من كتاب «موراس L'Action Française et la Religion Catholique) روى الكاتب اصول فكرته الفلسفية . فلقد بدأ بالشك لدن قراءته باسكال. اما هيوم فخلبه. اما كنت « Kant » فبدون ان يرضيه تاما فقد اثر فيه فتبنى من فلسفة كونت « Comte » قسمها السلبي التهديمي على الاقل (الكلمة لمورو « Moreau » في مجلة الاكسيون فرانسيز لاول ايار سنة ١٩٠٠ صفحة ٧٤٩ وما يليها) وهو من ذوي الحق بتفسير آرائه) : « لقد عرفت البهجة في فلسفته للجهال والسياسة بسبب التقاطي امهات الافكار باسمى وضوحها ، اما في الفلسفة البحت ، فلا» (L'Action Française et la Religion Catholique.page 67) فقد افسدت رطانة المذاهب الفلسفية لغته فقط . « ان الفلسفة الوضعية باهمالها المنهاجي للاسباب هي على طرفي نقيض للكاثوليكية » (ibid. p. 206) . « ان الفلسفة الوضعية هي علم التحقق من الامور وتثبتها الذي يحصي الحوادث ويستنبط النواميس » (Dilemme, p. 34) .

« ان اللامتناهي كما يقولون (الفلاسفة الالمان) والشعور باللامتناهي ليسا الا هذه الاصداء المتنافية للعقل ... وعليها ان تؤدي الى وضع مفهوم المتناهي فهو الوحيد المعقول » (Chemin de Paradis. p. XVI) « يلاحظ الفلاسفة الوضعيون بحق ان فكرة (الله) هذه باستطاعتها ان تنقلب الى الفوضى . ان فكرة هذا الرب غير المنظور والبعيد تبعده (اي الفرد) عن الاحترام الذي عليه لاربابه المنظورين والقريبين . . . ان هذه الالفة الصوفية (لله)

توجيه شديد في الفضيلة والثورة عليه ... وبعدا هو مبدأ الرحمة والمباغة التي تضيفه فكرة الاله الى الهوى الفردي » (Trois idées politiques, pages 58 et 59) .

ومن حسن الحظ لقد انتزعت الكاثوليكية منه سمومه (ibid. p. 60 et 61) .

واننا انرى سلفاً ما سيكون عليه علم الاخلاق في نظر موراس ، فمنطقياً ليس للفيلسوف وصمي شيء منه ، فقد شيد كونت علمه الاخلاقي بقوة تكرار ما ليس منطقياً ، وقصره دوركايم على ان لايكون سوى علم العادات التحليلي الخارجي . فموراس طبعاً كان منطقياً ، لكتابه « Le Chemin de Paradis » ملفت للنظر « بعدم المبالاة الباعثة على الدهشة لقضية الفضيلة وجودة البشر » (Chemin, p. 203). « ان الثقة الجنونية بالذي افترض كيانه واجباً قد كانت الكفر حيال ما هو كائن » (ibid. p. 278) . وستبدأ شيئاً فشيئاً المشادة حول الميل الى عدم تقدير الافعال البشرية الا من الناحية الاخلاقية ، وستلج قضية الخير بطبيعتها في قضية الحق (ibid. p. 282) . فإن كل علم اخلاق هو تصوف . وكذلك فان كل فكرة حقوق هي الهية... فلا نتكلم على الحقوق ، او لنفهم ان ضمانا لاهوتياً مختبئ فيها » (Enquête. p. CIII) . « ان هذه الحقوق هي اخلاقية ودينية وقضية شعور وايمان اكثر منها عقلية .

اما قاعدته في حياته الشخصية فاليكها : « التوفيق في قلوبنا بين الشيطان الديني وحب اللذات » (Chemin de Paradis, p. 18) .

فكيف يكون بالاستطاعة اثراء المسيحية في مثل هذا المنهج ؟

وبعد الفلاسفة المحدثين اكتشف موراس ضربين من المسيحية : المسيحية السامية والمسيحية الرومانية .

وفي كتابه « Le Chemin de Paradis » قال مركور لكريتون : « سيأتي مسيح عبراني الى العالم ويفتدي العبد ويحط الاقوياء عن العرش ويضع الاولين تحت الاخرين » (p. 175). واستشف كريتون العصر الحديدي . « تطفىء النيران المقدسة ويموت الفن الذي لا ينفع » (p. 189, 192) .

واوضح موراس في ذيل طبعته لعام ١٩٢١ قائلا : « لقد اعرب الخدم عن ردة الفعل ضد مجيء ثوري لعالم يهودي وبروتستني وهو في طريقه عندئذ لافتتاح باريس وفرنسة بصورة مبطنة ... (p. 215) . ويوالي ... كأن هناك لي

مسيحيين وانجيلين وكتابين مقدسين . . . ولكن قد يقال ايٌ من الاثنين كان في المفهوم كحقيقي وكواقعي ؟ وما شغلت هذه المسألة عقولاً بدون ايان لا تبحث في التاريخ عن شهادات ولكن عن صور بسيطة لاشهار افكارها » (p. 216) . وفي الملحوظة (ص ٤١١) من كتابه (L'Enquête) يقابل موراس بين المسيح (العالم الشرقي) وبين معلم الفلسفة الغربية اوغست كونت .

« لقد جعل اتفاق الاقدار شعوب جنوبي اوروبة المتمدنة قليلة الالمام بهذه الكتب المقدسة الشرقية المشوشة التي استخرجتها والفتها وفسرتها الكنيسة (Chemin de Paradis, p. XXVII et XXVIII)

« لقد حملت رومة ابنة اثينة ووريثتها الى الجرمانيين قانوناً وحقوقاً وعقلاً ونظاماً وذوقاً وانضباطاً عقلياً وعلم اخلاق وجمال . . . فاذا تلقى الجرماني فوراً من اورشليم ؟ لقد اعطاه . . . اشعيا ويسوع وداود وارميا وحزقيال وسليمان بمثليهم وخطبهم شواذج الجنون المحض » (Revue Action Française 15-10-1899) . « وخيل اليّ ان . . . الليل قد انتشر على العصر الحديث تحت صليب هذا الاله المتألم » (Anthinéa, 5e éd. p. 62) . فقد حذف من الطبعة الاخيرة لكتابه « Chemin de Paradis » تمّ تسمية البتول : فلتعظم نفسي للرب وادلى موراس بالملحوظة التالية : « انهم ينسون انني لحظت حالاً ان الكنيسة ترتل هذه التسمية بشكل لا تدع معه مجالاً لانبثاق الفكرة السيئة» (p. 224) .

وان الذي رآه موراس من ابلغ الشرر في المسيحية البدائية هو تعليمها للمحبة . اذ قال في كتابه (Chemin de Paradis, p. XXV) ان استبعاد بعض الناس وآلامهم هما ضروريان للتوازن الاجتماعي . فلقد اسفر القاء فكرة الاستقلال في الذهن عن « الالام الجديدة التي رأيناها بامّ العين » فا اكثر الذين نعرفهم ولدوا عبيداً وكانوا يجدون طمأنينتهم في اعماق سجونهم التي جلاهم عنها جلاء جنونياً التاريخ الحديث . وها هم ذو ما يرحوا يموتون من اضطرابهم السخيف وينتنون بباطل الرثاء ، فقد كان من الواجب الاسراع كل الاسراع لتوليتهم محاسن السجن او لنراهم قد بلغوا حالة احتراء شديد فتستبد اشلاء

... (ibid. p. 186).

ان نفوس البشر لم تستمد من اصل واحد ، فان بنات الصلصال لن يرتفعن الى مصاف اللواتي حبلت بها الالهة في امرة من ارجوان» (ibid. p. 186).

ومن سوء الحظ انه مذ صرخ المسيح من اعلى الصليب : لقد انقضى كل شيء « تسلم العبيد ازمة نفسهم » (ibid. p. 190) . « ان الذين كانوا انقذوا النفوس قد عقدوها ، فقد اطلقوا في الكون رعبة ذئبة . . . وهي . . . تميل الى الامور القبيحة المشوهة الذليلة ، فان هذه الرحمة العاقة قد حطت الحب عن مقامها وستت نفسها المحبة وتلقى الرعناء والضعفاء والعجزة قطرات ندماها . وانتشر من ليل الى ليل بذار هذه الآفة وافتتحت الارض » (ibid. p. 193) . وهذا ما سبب الاختلال بالمواليد الذين كان سيد الدولة في الماضي يقيم فيهم التعادل .

تلك هي المسيحية السامية وهاكم المسيحية الثانية :

« ان هذه الكاثوليكية التقليدية التي تخضع (عوض عن كلمة تخضع في سنة ١٩١٢ بكلمة مؤلفة) الرؤى اليهودية والشعور المسيحي الى الانضباط الذي تلقته من العالم الامريقي والروماني ، تحمل معها نظام الانسانية الطبيعي » (Trois idées politiques, p. 10) . ولقد ادخلت رومة روحاً جديدة في « المفهوم اليهودي الحرفي » وفي تعليم علماء اورشليم اليهود (Dilemme p. 24).

وما هو الغنم الذي يغنمه النظام الوثني القديم باستناده الى عقيدة شرقية ؟ انه يغنم منها تعزيز الشعور له . والناس لا ينقادون بالعقل وانما قيادهم بالشعور . (Cf. Moreau dans l'A.F. 15-3.1906) . واذا تفارقنا على الحقيقة كذلك فلقد نزعنا الى ان نلتقي على النافع . . . ووقعنا عملياً على الاتفاق في صلاح الكاثوليكية » (Dilemme. p. 191) ، ان هذه الانتهازية التحقيرية لمستمدة من رينان .

ولقد كتب غياوان (Gillouin) البروتستنتي في مجلة اوروب نوفيل ١٩٢٧/١/٨ (ص ٤٧ وما يلي (L'Europe Nouvelle,le 8-1-1927. (p. 47 sq.) يقول : « ان موراس يحب الكاثوليكية وانما بتحقير الانجيل ، فالذي امتدح الكنيسة الرومانية به هو كونها قد حولت شكل رسالة يسوع المسيح وافسدت صورتها ونسقتها وحنتها ونظمت فكرة الله المسيحية ونزعت منها سنها » .

وكتب لانسون في تاريخه للادب الفرنسي (الطبعة ١٨ ص ١١٢٥ وما يليها): ان موراس بمولده وتربيته الاولية ملكي وكاثوليكي ولكنه فقد الايمان مبكرا وهو يضمر الكره لما هو ديني صرف في الدين ويبغض التوراة ويناصب السامية العداء كل العداء. ويمتدح الكنيسة لأنها حذفت من الدين الكاثوليكي العنصر اليهودي وعنصر التوراة والانجيل والتصوف في سبيل فلسفة عقلية واقعية ... فهو روماني لكي لا يكون مسيحيا.

علم الاجتماع

زعم موراس ان لا صلة ابدا تصل فلسفته العامة بسياسته، لان سياسته وليدة تحقيق واختبار في شروط الازدهار الاجتماعي، ولقد كان في هذا الامر منطقياً لان موضوعيته الصرف تأبى عليه كل بحث ابعد من التجربة وكل قاعدة سامية. «اننا نراقب طبيعة الانسان الاجتماعي لا ارادته وواقعية الاشياء ولا قسطها من العدل، واننا نتحقق جملة احداث لا نستطيع ان نقول عنها ابدا هل هي اخلاقية ام غير اخلاقية لانها خارجة بجوهرها عن طائفة الحقوق والواجب» (Politique religieuse, p. 245. et cf. p. 98). فلا نحكمن عليه باسم علم الاخلاق.

«ان الوسيلة المعصومة من الغلط لتحليل من يغامر في النشاط السياسي هي استحضار مفهوم علم الاخلاق المحض على حين غرة في الوقت الذي عليه فيه ان يدرس علاقات الاحداث واختلاط بعضها ببعض» (ibid.p. 79). وفي حالة الضرورة؟ .. ان حالة الضرورة ليست حالة انطباق السلوك على قواعد علم الاخلاق ... ان قانوناً سامي الرتبة او بعيداً جد البعد يتدخل آنئذ وبه تتعلق سياسة الخدعة الحربية بمعظمها (ibid. p. 166, note 1). فلا يمتنع الفكر الثوري عن ان يدخل المفهوم الاخلاقي في هذه النقطة الدقيقة حيث لا ينبغي لنا الا ان نبحث في علم الاخلاق (ibid. p. 246 dans l'édition de 1921). «ان تجاوز حدود البطولة قد يكون باعثاً على الاسف في السياسة وحتى في مصلحة اسلم المبادئ ... ان الابطال لمجادلون محتدمون في المصالح» (Dilemme. p. 55 et 57)

واذ رأى مورياس نفسه ضمن من اتي تدخل السلطات الادبية والدينية الذي اعلن عدم كفايتها [1]. فيوقع بطمأنينة كلية نظريته السياسية والاجتماعية.

المجتمع

المجتمع جهاز عضوي حيّ ، هذه هي قضية الواقعية الاجتماعية المستمدة من كونت ومن مدرسة علم الاجتماع والتي اعتبرها صحيحة وان لم يرض الكثيرون من الكاثوليك الحديثين الشديدي الحرص ، بصورة قاطعة ، على الدفاع عن انفسهم ضد الفلسفة الهيجلية [2].

ولننتبه الى التفسير :

ليست الروابط الاجتماعية من الباب الاخلاقي فان ما يوحد الفرنسيين او يفرقهم ما هي الارادات وانما ردات الافعال الطبيعية (Dilemme, p. 60) . « كل مجتمع يتشيد تبعاً لضرورات طبيعته ينبغي معرفة جوهرها بالضبط فلا نثبت او ننكر العدل او صحته (La politique religieuse, p. 78) . فالضمير والمسؤولية والاخلاص هي اوهام . « ان ابلغ ما يبلغه هذا الضمير وهذه المسؤولية لا وجود له بالحقيقة الا في نظام غير عضوي برمته ، ... ان جميع ما نتجه الى (انا) كل واحد والى مسؤولية كل واحد نقتطعه من التنظيم الاجتماعي(Dilemme, p. 150) « ان الواجبات السامية التي نضحي كل شيء في سبيلها في وجدان خير رؤسا حزب ... ليست تلك الواجبات الوطنية البعيدة المبهمة المستغلقة فاخلص الناس يضحون بكل شيء. وعليهم ان يضحوا بكل شيء عملياً في سبيل العمل الجماعي المباشر : اريد جريدتي قبل كل شيء. وحزبي قبل كل شيء. ... (Dilemme. p. 58 et 59) (طبعاً يجب في ذلك استثناء الاكسيون فرانسيز) . وبعبارة اخرى ان الشعور الوحيد الذي نستطيع التعويل عليه هو الانانية فمن الواجب ايجاد امر آخر لخلق الاتحاد في الجهاز العضوي الاجتماعي والابقاء عليه .

---

١) راجع المقال الصادر في المشرق (١٩٥٣ ص ٧٤ وما يلي) « هل السياسة مستقلة عن علم الاخلاق» كيف وجد موراس مساندة بين بعض اللاهوتيين الكاثوليك وكيف حكمنا هذه القضية .

٢) راجع (نيارا فلسفة الحقوق) المشرق ١٩٥٣ ص ١٠٠ وما يلي .

وثمة الاريستوقراطية ، « في الديموقراطية لا توجد رتبة البطريق الموجهة وحتى الاسرة التي تستطيع نفس الامة ان تفكر ذاتها فيها (Dilemme. p. 143) « لا ريب في انه يظل دائماً عدد قليل من ذوي العقول التي تتأثر والوجدانات التي تحسّ تلفظ الامة بوضوح امرهم الفرضي (ان شئت ان تعيش فرنسه) . . . فهل يقوم وجدان وارادة وحياة سياسية تحت المستوى حيث ممكن مثل هذا القدر وواقعي ؟

هناك فقط عادة وسنة وتسليم اصمّ الى الاكراه والقوة . . . فلنستر على هذا الصعيد العالي حيث نقيم (Enquête. p. 117) . « ولئن عرف شروط (السلامة العامة) فرد واحد ضد ٣٨ مليوناً من الافراد فيحق لنا ان نعرضها . . . وان نعمل لتعلوَ على رأي الاخرين بجميع الوسائل التي تكون في متناولنا . (ibid. p. 383, note 1)

٢ – السلطة

« طالما يتناسل البشر عن طريق الدم . . . فينبغي ادارة النظام السياسي بالدم ، فالدول « بوصفها دولاً » سواء اكانت ملكية ام جمهورية ، قديمة ام حديثة ، امبركية اواوروبية ، مدعوّة لتكون سلطاتها وراثية» (Dilemme.p. 74). فالمطلق والثابت الذي لا يتغيّر في العالم السياسي هو الحكومة الوراثية . « هذا الحق الالهي لجميع الذين مَن تكون الطبيعة عندهم الهية » (ibid. p. 25). « اذا كانت الامة مؤلفة من عيال فيجب ان توجهها عيلة او عيال (Enquête.p. 124) « ان الحقّ الطبيعي يترع الى دعوة هذه العيلة لتأمين الادارة الرئيسية للمصلحة العامة » (ibid. p. CXXV) ، وان المكانة هي التي تكوّن المقدرة الحكومية (ibid. p. LXXXVI) . لا يستطاع تثقيف شعب وانما يستطاع تثقيف وليّ العهد (ibid.p. XCVIII) . « ان وضع فكر المواطن الملكي . . . لا يتعلق بجماعة الروح او القلب الامرين الادبيين ، بل بامر مادي : المكانة ، فملك البلجيكيين او ملك انكلترة هما الوحيدان من بين جميع الانكليز والبلجيكيين اللذان في مكانة يشعران معها بمصلحة البلجيكيين والانكليز العامة» (Dilemme, p. 63).

وزد على ذلك ان الانانية هي الحافز الوحيد للملك . « ان ما يهمّ ليس

ن تختص السلطة في وقت ، بمن هو اشدّ جدارة ولا بمن هو الافضل . . . بل ان يكون اشدّ حرصاً مباشرة على وظيفته الملكية . . . وهناك وسيلة لجعل الانسان حريصاً كل الحرص على ما يفعله وهي ان تجعل هذا الامر امره وان يظلّ دائماً امر ابنائه ؟ وان يصير ملك الدولة العام الملك الخاص لملكها . . . ان تصير الدولة واحداً سياسياً مع اسرتها المالكة » (Enquête, p. XC) . « يجب ايجاد المطمع في التجرّد » (ibid. p. CXXIV) « ان اختلاط الانانية البريئة والغيرية العفوية المتلازمتين بردّات افعال وجدان الملك الطبيعية والذي كان بوسييه « Bossuet » يسميه وطنيته الفطرية سيمتزج نفسياً بممارسته الادبية لواجباته في الدولة » (ibid p. 91) . « ان الوراثة الملكية التي توحّد مصالح الملك ومصالح الدولة تستطيع وحدها تأمين السلطة المركزية اي ان تاجيا لا بشعور وطني فقط بل بشعور المصالح القومية » (Enquête, p. 410, note 1) « انكم تجدون في اصل هذه العادات (للحكومة) ظاهرة طبيعية وظاهرة انانية ومصلحة طبيعيين » (Dilemme, p. 56) . ان الملك الضعيف او العاطل تمنعه مكانته عن احداث بعض الاضرار . « وانّ اقلّ ما مقدوره ان يفعله سيكون بلاؤه لهذا التجرّد ولعدم الاهتمام ولهذا التراخي في الغريزة ولزهرة السكينة التامة الوقحة او الساذجة ، وهي ميزات الديموقراطية حيال المصالح العامة والحيوية (Enquête, p. XCII) . فما هي هذه الديموقراطية للكرسي في جوهرها ؟ انها الفرضي المحض . وان ديموقراطية عضوية هي دائرة تربعة (Cf. Dilemme, p. 28 et 71) ، وان حكومة الفرد يسعها ان تستعير ما هو صالح من حكومة الكثيرين . . . وهذه الاخيرة تحطم نفسها متى عكست الاعارة (Enquête, p. LXXXII). « بالاستطاعة تعريف الجمهورية الحقيقية بكونها سيطرة مصالح الاحزاب واهوائها وارادتها على مصلحة الشعب الفرنسي الكبرى » (ibid. p. 20) . « ففي الجمهورية الديموقراطية يشدّ كل ذي « انا » ملح بحقوقه من جبته (ibid. p. 43) ». وفي الاستطاعة تحديد النظام الانتخابي في عالم النفس النظري : انه التضارب بالآراء الجنوني او الكامن غير المنقطع ، تضارب اراء احد عشر مليون (انا) عندنا » (ibid. p. 87). وبواسطة الملكية تنتزع اذًا السلطة . . . عن عدد الافراد الفاقدين الحركة » . ان الوطنية تلك الغريزة الشعبية

الضيقة تصبح في الملك الراعي عقلية وارادية، ولن تبقى متعدّدة كل التعدّد ولا حجة ولا بهيمية، فهي انسانية» (ibid. p. CXXX). « لقد كان غليوم الثاني الاخير المدافع الاخير عن السلم في شعبه الثاري » (ibid.). « ان الحكومة الملكية تأتي باقل ما يمكن من الحروب وبانيدها على قدر المستطاع » (ibid. p. CXXXI).

ما هي القاعدة التي ينظّم الملك بموجبها عمله ؟ ان قاعدته الوحيدة هي المصلحة، ولكن من المستحسن ان يرى الشعب فيها امرًا اخر. « وان القاعدة المفيدة للدولة وللمجتمع تستمدّ هذه الحماسة المفقودة من العقل الجاف من الايمان والرأي والقلب (ibid. p. CIX)[1].

٣ – اثبات التاريخ للنظرية

« تبدأ انتصارات الاجنبي ونجاحه على ارضنا من تاريخ انتصارات الديموقراطية وتقدّمها » (Enquête. p. XI). « ولقد استطاع ملوكنا ارخاء العنان مرّة او اثنتين في الداخل، اما في الخارج وجبهاً للملوك فلم يتراخوا » (ibid. p. XXIII). وليس عدوّنا في المانيه قيصرها «لان امبراطور المانية وملك بروسيه كان وقتاً طويلاً معقل السلم، واذا مطامع شعوبه قد كانت الاولى في ارادتها للحرب » (ibid. p. XLIX). ان جميع الديموقراطيات هي بنات الثورات والقوّة . . . المتزوجة بالحديد والمشروعة بالدم » (ibid. p. CI)، لقد خلق العالم يتطور نحو الملكية. « يرتدي ملك انكلتره قبعة كاحد برجوازي المملكة، ومع ذلك أفليس هو من اقوى ملوك العالم ؟ وهل تدنّى تقدم قوته وسلطته ليس فقط عن والدته وعن الاثنين او الثلاثة من سلفائه المباشرين ولكن ربّما عن جميع ملوك اسرته في البحر ؟ (Dilemme, p. 86).

٤ – النتيجة العملية – الاصلاح

لا يستطاع اجراء اصلاح التربية الا بعد الاصلاحات الاخرى، وكذلك الامر في الاصلاحات الاجتماعية والادارية (Cf. Enquête. p. CIX. sq.).

« فاصلحوا اذًا الدولة اولاً ».

---

١) بصدد العلاقات الدولية : تفرس الاكسيون فرانسيز نظرياتها التي لا تطمع في ان تكون جملة بل صحيحة في القضايا التالية : (هناك لائحة نقاط الاكسيون فرانسيز) . . .
٢ – الخوف من الغريب وبغضه سواء أكان داخلياً ام خارجياً (Dilemme, p. 127 et 128).

وجهة نظر ... ومن وجهة نظر التعقب في الزمان ... اولاً الامة ومن ثم المجتمع واخيراً الدين »
(Politique religieuse. p. 369. sous forme interrogative. équivalente à une affirmation).

« اننا نقول كجان دارك . لا بد من الملك اولاً ... ومن ثم جميع الباقي الذي يجب تنظيمه او على الاقل يستطاع تنظيمه عوضاً ان لا يُنظم شيء بدون ذلك (Dilemme, p. 35) .

لقد تركت موراس يتكلم وحده وجهدت النفس لاستنبط تعاليمه من ادبه الكفاحي الذي يغشيه .

الاحتكام

١ — في الاراء الموراسية خليط دقيق من الافكار المضبوطة والافكار المستغلقة والافكار الخاطئة ، ينسب موراس الى نفسه احتكاره للافكار الصحيحة مع انه لم يجدها ولم يكتشفها وليست مدينة له بشيء كبير ، فنحن نعرف قبلة مغريات الانانية ، وان العام هو قبل الخاص ، وضرورة النظام ومحاسن النخبة المنخوبة ، واننا نعرف خيراً منه مبررات هذه الافكار وكيف تفرض نفسها فانها على رغم بخسه لها وعلى رغم مقالاته لاسباب لا تتعلق بعمله قد تفوقت على الفكرة الثورية منذ جوزف دمستر (Joseph de Maistre) . فان بعض اثباتاته اما غامضة واما سطحية . وما هو بالرجل الذي يقيم وزناً للميزات فاما ان يسلم بها جميعها واما ان لا يقبل شيئاً منها . وهل حلّل مرة مفهوم النظام الشائع في اشتهاره وقد ابدى في سبيله كل هذه الحماسة ؟ فموراس لا يدرس وانما يرشق افكاراً مقولة كاملة وافكاراً مكتبية بوضوح ديكارتي اعني بذلك ظاهر فقط .

ولقد تحدثوا عن « منطقه القاطع » فهو على الاغلب رجوم . وقضاياه الكبرى هي استقراءات دقيقة من المبادئ الموضوعية والمادية والتشاؤمية وهو لم يتراجع امام النتائج ولا توسل ككونت بالذرائع ليشيد علم اجتماع مدقق فان احتقاره العظيم للاحداث والمبادئ قد عرقل تشييده .

وعلى وجه التفصيل ان لغته تعج بالمغالطات عند ما يحاول توفيق نظرياته

والتجربة او ان يجد لها مجدًا في الظاهر ، فيسعنا حتى القول ان موراس هو من اعظم رجال السفسطة الذين لم تشهد لهم مثيلًا .

واننا لعلى اتفاق معه عندما يتكلم على شروط النظام الاجتماعي الطبيعية لانها عموميات فقط ولكن اذا ما ولجنا الحقل الانساني او الاخلاقي فلا ينبغي لنا القول انه ارتكب اهمالًا وشططًا فحسب بل انه قد كان معارضًا معارضة كاملة .

ولننظر الان في الجوهري

لقد وُفق موراس في مكافحته الفردية باستعارته ضلالها وهما اقوى اسسها : المادية والانانية فهو يحارب مبدأ المدد الذي حاول ان يجعله جوهر الديموقراطية كله ليعوّض عنه بمبدإ الدم والقوة الطبيعية : قوة المادة ، وينكر ان يصبو الانسان الى المزيد من الروحية والمحبة ، فكل شيء في نظره يستند الى الغريزة الانانية الثابتة ومستحيل التقدم ، اذ من الواجب قمع التظاهرات اللاجتماعية لا قمع الانانية ذاتها ، ويقول ان هذا الرجعَ مناف للطبيعة والذين بشروا به رجال حالمون ومضرّون .

وانه المنهج البابلي الذي جعله الحق الطبيعي .

ماذا ينبغي لنا ان نفكر في هذا الحكم المكرّر غالبًا : ان علم موراس الاجتماعي هو علم ناقص مبتور من متمّ بالاستطاعة اضافته اليه وانها ليست بثلمات ينبغي ان نرثي لها وان نسدها لان الاراء المواسية هي خاطئة وفاسدة بجوهرها .

وان اشد ضروب ضلاله خطرًا ليس انكاره لوجود الله ، لان فولتير الذي كان مؤمنًا بالله كان سمّه زعافًا قاتلًا اكثر جيدًا من لاادرية كونت فموراس كان عمله اكثر من انكار الله والحياة الثانية والقوى الفائقة الطبيعة فهو ينكر العقل ويفسد الطبيعة وهو على طرفي نقيض من الحقيقة في الفلسفة والدين فقد تهجم على الروح المسيحية وفكرة القديس توما في وقت واحد وهو الذي يرى الحقيقة عندما يؤكد معارضته ليسوع الناصري التاريخي ، ومن وراء عشرين قرنًا صرت بالمسيحية يعود الى الالتقاء بالوثنية القديمة ، فروح التآخي هذه التي استشفها

اوريبوس وجعلها المسيح موضوع وصاياه قد سنها اجلالاً شرقية وليلا هبط من على الصليب واراد ان يرجعها الى الوراء .

٢ – مصادر موراس : راجع المشرق ١٩٥٢ ص ٥٠٧ وما يلي

يعترف موراس ببعض تأثير لكنت « Kant » ورثه عنه من خلال مطالعاته الفرنسية ، اما في علم الاجتماع فينتمي بطيبة خاطر الى كونت ، والواقع انه منذ ولوجه حقل الاجتماع يدير ظهره الى هذا العالم ليتبع رينان الذي قال فيه بيير نولهاك (Pierre de Nolhac) « ان نفسه السلتية كانت ترشح بالجرمانية» (Cf. Discours de réception le 18-1-1923) وكان يفخر بذلك : انا مدين بعظم فلسفتي لالمانية (Cf. Revue hebdomadaire, Janvier 1914, p.359) وكان يردف قائلا :« اعتقد ان المسيح سيأتينا من هناك » .

ونظريات موراس وشتائمه جميعها موجودة لدى جماعة ما وراء الرين . « انني ادعو المسيحية بالطامة العظيمة والفساد الوحيد الكبير . . . فمن احدث اعظم شر في الارض غير جنون الذين يرحمون» ؟ (نيتشه) .

ان الموراسية والهتلرية هما بنتا عم ومتشابهتان حرفاً حرفاً . راجع في مجلة « الدروس » ٢٠ – ٧ – ١٩٣٢ ص ١٤٢ وما يلي : ما هي الهتلرية بقلم روبر هاركور فلن تجد شيئاً تبدله سوى الموقع الجغرافي .

والخلاصة ان الاكسيون فرانسيز هي تبحر في تأملات جرمانية ومحاولة لجعله بلاد القديس لويس بروسيّة .

٣ – فكر موارس وطبيعته

لست اتحدث عن شخصيته الخاصة ، ولا عنه كروائي وكشاعر ، وانما ككاتب سياسي كما تمثله مؤلفاته .

لقد كان موارس مؤسس مدرسة وحزب سياسي شهير ورئيسها ، وقد اتخذه قسم كبير من الشباب الفرنسي والباجيكي طوال بعض السنوات هادياً لهم ولقد انضم اليه انضماماً متحمساً عدد كبير من الرجال والنساء من كل الطبقات الاجتماعية وحتى من الكاثوليك والكهنة والرهبان على تسلسل درجاتهم وانتهى به الامر الى ان اثار عاصفة في الكنيسة .

والآن وبعد ان سقطت درجة الحمى لنبحث عن اسباب تلك الظاهرة . ان من بين اولئك المنضمين اليه كانت فتنة تتعلق بشخصيته وغيرها دفعتها البيئة والظرف الى مسايرته .

لم يكن تأثير موراس على العقول ناجماً عن ذكائه وانه لم يكن مفكراً حقيقياً بل رجل نظري لا يتصل بالواقع ولا شعور له به ولم يكن مثالياً . فافكاره كانت افكار من درس دراسة اولية عالية ، ومستمدة كما نعلم من ابن وبسيطة جداً البساطة ، ولقد تعذر له ان يفرض نفسه وان يقلع بعنصر تعليمه الارادي العاطفي باقتناعه المطلق وبصلف عقيدته وبضرب من التصوف لم تدع معها مجالاً لاية مناقشة كانت تتطلب الحماسة والاندفاع . اما لغته فلا تتفق اقل اتفاق واللغة العلمية الموضوعية ، ولديه لغتان مختلفتان : ففي القضايا غير القابلة للمناقشة ويعرضها كمكتشفات وفي الاثباتات الجريئة التي لا يراد اخضاعها للبحث والمناقشة تبدو لغته احياناً صريحة حتى الخشونة في حدتها تتصبح في تصديه لبعض النقاط الدقيقة كملاحظات علم الأخلاق بالسياسة لغة متقلبة مستغلقة قصداً ومفعمة بالابهام ويستشف من عباراته نصب فخاخه متدبراً دائماً لنفسه فيها مخرجاً للتهرب ، اما بوصفه فناناً وخطيباً شعبياً ومحامياً فقد كتب محاورات وخطباً ومدافعات يفعمها التأثر والعنف .

ولا نحتاج من وراء الافكار التي نتصورها في مستقر شعورنا الا ضعيفاً جد الضعف فهناك التراث التي نتابعها .

والجدير بلفت النظر في موراس هو عجزه عن الحب ومقدرته على البغض اما الغاية من هذا البغض الرئيسية بعد المحبة كما رأينا . . فالسلطة . غرابة ؟ ظاهراً ، نعم ، ولكنها بالواقع : أهي السلطة الدينية ؟ اننا نتسلقها ونبجلها طالما نقوى على الاستفادة منها ، واننا على شرط ان تسلس لنا قيادها . اما منذ تريد ان توجه الضمائر في اتجاه مغاير وترفض ان تخدم قضية غير قضيتها فنحتقرها ونجردها في الوحل بجميع الذرائع .

أهي السلطة المدنية ؟ اننا نرفع سلطة مثالية حتى النعيم ، سلطة العدد . ولكنها غير مزعجة الآن . اما السلطة الوحيدة القائمة الواقعة فاننا نحطمها بجميع الذرائع .

ام العمل الذي يتدرّي به موراس ويوعزه هو بالكلام وسلبي خاصة . اذا لا نعمل بل نأتي بردّات الفعل ، وينتهي بالفكر هذا التمرين الى ان يتّخذ طبيّة باعثة على الاسف ... الاجحاف والضغينة .

ومهما يكن الامر فاننا شديدو الدهشة من ان يلاقي تعليم وعقلية غريبان كل الغرابة عن روحنا القومية مثل هذا الرواج في اوساط كاثوليكية لنأتي على ذكر بعض الاسباب الظاهرة لذلك كما يلي :

كل رأي سياسي حتى وان كان اشد الاراء صواباً مردّه الى التعصب . فهو غير مقيد وغير مهادن ولا متسامح والانضمام الى الاكسيون فرانسيز رأي سياسي اولاً ساهمت في قوته اسباب وحوافز عدّة : احترام الملكية التقليدية والعطف على البيت المالك في فرنسة واحترام الرجل الذي نجح في استرداد الشعبية والاخلاص لحبه فرنسة وحبّ ماضيها وامتيازها بكونها ابنة الكنيسة البكر والاسف على ضعتها الحالية والحنق على الماسونية والانتقاض والكفر المتصاعد والرغبة الشديدة في وضع حدّ لهذه المساوئ وفي ازالة جميع هذه العراقيل بارجاع الملكية وحدها ، ومن وراء ذلك محبة بعضهم لفكرة الطبقة . . . ان جميع هذه العوامل مع جهل بعض ما كانت تخفيه سياسة موراس تحتها وبدون اجهاد النفس لبحثها قد كونت مجموعة هدّامة متماسكة غير قابلة للانقسام .

وينبغي ان يضاف الى هذه الامور النقصان الملحوظ في دراسة الفلسفة في الاوساط الاكليريكية التي كانت تعرف عن يد القديس توما وتحييه برفع القبعة عالياً بدون ان نعرف من تعاليمه الّا النذر القليل .

وما كان الموالون لموراس يعرفون بتأييد البابا لشجب الكاردينال اندريو اراء موراس حتى عرتهم الدهشة ، فكم كان عدد الذين فكروا في ان يعيدوا نظرهم لتحليل اقتناعهم بما دعاهم موراس الى اعتناقه كما دعاهم اليه ، فقد رأى الكثيرون ان لا فائدة من اثارة هذه المسألة ، وانه من الجنون ان يحرقوا ما طلب اليهم ان يحرقوا ما كانوا يعبدون . فبحثوا عن تفسير هذه الظاهرة الكارثة ، فسوعدوا على ايجاده : لقد كان البابا متزوياً في غرفته يحفّ به كرادلة يميلون الى الالمان الخ الخ . وكانت مطالعتهم للاكسيون فرانسيز

عوّدتهم الانتقاد والسخط والقحة فكان الانفجار الجنوني ، واذ اتضح لهم ان البابا ما اراد قبول احتجاجاتهم انكروا عليه الحق في محاكمتهم وطلبوا تحديد صلاحيته الخاصة في هذا الامر . . . وانتظروا البابا المقبل . فالاحكام الصريحة كل الصراحة لم تتناولهم ومقررات المجمع المقدس Saint-Office وديوان التوبة الرسولي كانت غير صحيحة ولم يخالجهم شك ان الكنيسة كانت مخطئة ، وغدا الحزب بدعة .

وان هذا الشر لكثير الوقوع في البلاد الفرنسية. ففي غضون قرون نشبت ازمتان او ثلاث ورطات جماعية : كدريفوس وبولانجه والسيّون وكلازيل . . . كما جرى قديماً نوستري واوستارازي والارميناك وبورغونية والرابطة « والاصلاح » البروتستنتي وحرب الفلاح والكاردينال وبراءة البابا وبور رويال . . . ولا ريب في ان ذلك يدلّ على ضرب من المثالية فاننا لا نستطيع الاكتفاء بوجود كثيرين من اصحاب الآراء بل من الواجب ان تتمالك في سبيل فكرة ولاسيما في سبيل شخص ومن سوء الحظ لقد تنوسيت اضاءة المصباح .

وثمّة عدد كبير من جهابذة العلماء مهتمهم تنوير الرأي العام وتوجيهه . . . وفي هذه الحالة لا بدّ من الاعتراف بانهم لم يوفقوا لان بعضهم قد جرّه المعلم العلماني واستغلوا الى ابعد حدّ تهاونهم . أما الذين جرأوا على رفع صوتهم معارضين فاغدقت عليهم الشتائم .

ومن ثم انه لواقع ومن نكد الدهر ! معروف في بعض الاجواء وهو انه اتفق ان كانت هناك احياناً سلطات عاجزة اعتقدت ان تجمّ الاذن عن الدفاع بحجّة المحبة فخانت المحبة : « كان ينبغي ان لا تنزل بوراس اية عقوبة وان خفيفة » أفليس كذلك ؟ اما الجمهور المشدوه بشادّات بعضهم وانهماك غيرهم فلم يدرِ بايّ شيء يتمسك ولا الى من يسمع ، وفي قلب تلك الظنون كانت الطاعة جديرة بالاستحقاق ، وكانت بطولة لبعضهم لانهم بدون ان يقدّروا المبلغ الذي قد يتعدون معه عن توجيهها تمسكوا بكلّ نفسهم بالحجر الاساسي الذي لا يخدع ابداً .

(Œuvres de Maurras utilisées

La Politique religieuse, 2me édition 1912 (se retrouve dans le suivant).

La Démocratie religieuse — Le Dilemme de Marc Sangnier — La politique religieuse. L'Action Française et la religion catholique 1921.

L'Action Française et la religion catholique 1923.

Enquête sur la Monarchie, 1925. Le Discours préliminaire comprend les pages VII à CI.

Article de la Revue hebdomadaire, Mars 1910.

Chemin de Paradis, 1895; réimpression de 1921.

Anthinéa, 1902; réimpression de 1912.

Trois idées politiques, 5e édition, 1912, réimprimé avec Romantisme et Révolution en 1922.

Mes idées politiques, 1937. Ce médiocre résumé d'un disciple n'apporte rien d'essentiellement nouveau. Il introduit seulement dans le système un peu plus d'incohérence, retirant d'une main ce qu'il a eu l'air d'accorder de l'autre.